الفصل الثانى

فى
الإسلام
بين دعاته وأدعيائه

- الدعاة .. القرآن مصدرهم والرسول صلى الله عليه وسلم قدوتهم
- الأدعيـــاء .. الخلفيات منطلقهم ، والتغميض رايتهم ، والضـلال نهايتهم
- من الخصوم الى الأعداء
- الدعاة والأدعياء والخصوم والأعـداء بين الأمس واليوم
- الدعاة والأدعياء والخصوم والأعـداء

obeikandl.com

قبل تحديد الدعاة ، وعزلهم عن الأدعياء وتعريف الخصوم ، والأعداء ، نبدأ بتجسيد اطار القضية ، وأرضيتها ، وهل هى قضية الإسلام ، أم قضية المسلمين ؟ وهل يعتبر قصورهم فى التطبيق وبشريتهم فى المواقف ، على أنه قصور فى مبادىء الإسلام ؟

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم
الاسلام بين دعاته وادعيائه وخصومه وأعدائه

تمهيـــد :

• أهى قضية الإسلام ، أم قضية المسلم الإنسان ؟

تطرح القضايا الإسلامية الآن ، وكأنها قضايا مصير الإسلام ، وترتفع الأصوات فى كل مكان من الخوف على نهاية هذا الدين وإذابته أمام أمواج هذا العصر المادى الطاغية ، وتحت سماء سحبه وضبابه اللائى الملحد . وهذا ليس بجديد فغى كل مرة يتأزم المسلم كإنسان ، يعتقد أن الأزمة أزمة دينه ، وفى الواقع الأزمة أزمته ، وفى كل مرة تعتريه قضايا التكيف ، والمعايشة ، والمواجهات الحضارية فى الحياة اليومية ، يرتفع صوته والإسلاماه ؟ مع أن القضية قضيته . إنه يحاول أن يصدر الدين ويحتمى فيه ، بدلا من أن يتصدر هو ويواجه باسمه ، ويرفع رايته . إن الوهن يسيطر عليه فى بداية الطريق ، حينما ينطلق من مبدأ الشك فيما لديه ، وفى سلامة منطلقه الروحى وصلاحية تطبيقه ، وصحة هدفه. القضية إذن هى قضيتنا نحن معشر المسلمين ، والأزمة أزمتنا نحن البشر فلا نحمل الإسلام دون دراية وزرنا ، ومطامعنا ، وأهوائنا ومذاقنا ، وتقلباتنا ، ونزعاتنا ، واتجاهاتنا ، ومآربنا ، وأهدافنا المصلحية ، فنعمم الأحكام ، ونعوم الصادق فى الباطل ، فيتكلم المسيىء بلغة البرىء ويتقمص الجاهل دور العارف ، والمتهور مكان العاقل ، ونغوص فى سحب الغموض والالتباس . الاسلام بخير ولو أن مصيره قرر فى كل مرة من خلال أزمات تعترى المطبق الإنسان لما وصل إلينا اليوم ، ولا انتهى عند أول أزمة ، وذاب فى بوتقة الأحداث التاريخية . الإسلام وقد عبر العصور وبعد أربعة عشر قرناً من المسيرة الخالدة ، يشهد العالم أنه قوى

بمبادئه ، صامد كالصخر ، أصيل بعطائه ، صالح بوجوده صحيح ببقائه واستمراره . سيداً يكسب الأرض، ويحقق النصر فى القلوب المتدافعة إليه فى كل القارات . الإسلام دين شامل متجاوز لكل الفلسفات الأساسية التى ابتكرتها العقول البشرية قبله وبعده ، ومن باب أولى لكل الأديان السابقة له ، والتى احتواها كمراحل لوحدته وتكامله .فهو الدين الأكمل الذى أصل الروح ، وهذب النفس ، وأسعد الجسد . أصل الروح ببقائها بعد الجسد المادى ، وهى التى تمثل أمر الله ، وإرادته الشاملة وتسيره للجسد بقوانين الحياة الدقيقة الحكيمة ، ومن هنا كان الإنسان مسيراً حسب أمر الله وإرادته . وهـذب النفس بإعطائها أساساً للتنشئة السوية ، لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ، فحملها المسئولية الكاملة بعد أن أنار وحدد لها معالم الطريق ، على أن تمثل عبر الحياة إرادة الإنسان المخيرة التى سوف تحاسب نتيجة لإشرافها على تنسيق علاقة الروح (أمر الله وإرادته المسيرة للشمول) بالجسد ، والسير به تفصيلا نحو الطريق السوية التى أرادها الله فإن نكصت حوسبت ، بعد أن ألزمت (١) . وأسعد الجسد بحثه على التذوق الوسطى (وهو الأمثل) للحياة ، فى إطار تشرف على تنسيقه النفس صاحبة المسئولية بين جسد يبحث عن الإشباع بمتطلباته البيولوجية وروح ترمز إلى التسامى من خلال آفاق متجاوزة للاستهلاك . أى دين أمثل وأحكم وأكمل من الإسلام. القضية ليست قضيته ،نكرر القول ونؤكده، ولكن القضية قضيتنا نحن . كيف نفهم الإسلام ، ونتعرف عليه ، بمافيه وفاءاً له ، ثم كيف نعرف به : وندعو له بمقتضى المنهج الذى حدده، وهو يعتمد على « الحكمة ، والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن » ومن ثم يسهل علينا الحوار والإقناع والتطبيق . كما يسهل علينا مواجهة الخصوم ، وكشف الأدعياء ، ومنازلة الأعداء .وهذا يتطلب تحديد الدعاة وتميزهم عن الأدعياء ، والخصوم والأعداء ، ولنبدأ بتحديد الدعاة .

---

(١) وهذا ما نميل اليه فى الاجابة اختصـار على التساؤل المطـروح دائما عن الجبر والاختيار ، هل الانسـان مسير أم مخير ؟ • نعم هو مسير على مستوى الروح أمر الله وارادته الشـاملة ومخير على مسـتوى النفس ارادة الانسان حسب تنشئته ، وسلوكه الذى ارتضاه فى التنفيذ سـوى أو غير سوى •

المبحث الأول

الدعاة : القرآن مصدرهم
والرسول صلى الله عليه وسلم قدوتهم

إذا كان التحديد اللغوى لتعبير دعاة (جمع داعى) يعنى من يدعو الناس إلى عقيدة أو مذهب أو مدرسة، فالقرآن الكريم وهو الذى يعيننا كعمدة فى التعريف والتحديد للمفهوم يبين لنا الداعى على أنه من يدعو إلى الله ، وإلى سبيله لتكون كلمته العليا « قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله »(١) والآية « وادع إلى ربك »(٢) . على أن تكون الدعوة إلى الله وحده وليس لغيره « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك»(٣). والهدف من الدعوة هو الهدى ، والنجاة فى الدنيا ، والصراط المستقيم « وإن تدعوهم إلى الهدى »(٤) « ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة ، وتدعوننى إلى النار » (٥) ، « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم »(٦) ثم حدد لنا القرآن منهج الدعوة فى الآية الكريمة : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »(٧) وكذلك حث على الاستجابة للداعى واتباعه « يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به»(٨) وأكد لنا كتاب الله أن هذه الدعوة إلى الله هى دعوة الحق « له دعوة

---

(١) يوسف : ١٠٨ .
(٢) القصص : ٨٧ ، الحج : ٦٧ .
(٣) يونس : ١٠٦ .
(٤) الاعراف : ١٩٣ .
(٥) غافـر : ٤١ .
(٦) المؤمنون : ٧٣ .
(٧) النحـل : ١٢٥ .
(٨) الاحقاف : ٣١ .

الحق »(١) هذه الآيات البينات وآيات أخرى ذكرت فيها الدعوة والداعى توضح لنا معالم الطريق وتضع لنا الأسس والمنهج والهدف ، إنها الطريق التى سلكها وسار على نهجها الداعى الأول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قدوة الداعين ورائدهم : التزم بأصول الدعوة فكان الداعى إلى الله جل وعلا ، وللهدى ، والنجاة والصراط المستقيم كما التزم بالمنهج فكانت الحكمة وسيلته ، والموعظة الحسنة حواره ، والمجادلة بالتى هى أحسن قدرة إقناعه . كان الداعى الصادق مـــع ربه ، والصادق مع قومه والصادق مع أسرته وأعزائه ، والصادق مع نفسه . ما استعمل رسول الله صلى الله علية وسلم لفظاً نابياً فى دعوته ، ولا كان فظاً غليظ القلب . كان يواجه برحابة الصدر وصدق الكلمة الهادئة . كان يصر على الإقناع من خلال الحوار بقدر إصراره على عدم التزحزح قيد أنملة مما صمم على تبليغه ، وأمر به من ربه ولو خير بين ملكية الشمس والقمر والسماء والأرض ما اختار إلا رسالته . أسس بوحى من ربه المدرسة الأولى للدعوة سراً فى دار الأرقم — كما هو معروف — وكان فى إمكانه وهو نبى الله ورسوله أن يجهر بها ساعة نزولها ، ويفاجىء قومه بالتحدى السافر والتهديد ، والوعيد بمجرد خروجة من غار حراء وبعد الآية الأولى من القرآن ، ولكن سلك أروع سلوك لمخاطبة الإنسان فى تبليغ الدعوة؛ سلك السلوك البشرى ، والمخاطبة حسب العقول ، وطاقتها الفكرية وأهليتها وإلا كانت دعوته مجرد مفاجآت ، وطلاسم وألغاز لا يعرفها إلا أهل السماء ، ولكن الدعوة تعنى أيضاً أهل الأرض من الناس . خاطبهم قدر عقولهم وما يتدبر عقل الإنسان إلا ما يراه ويحسه ويسمعه مما يحيط به من جبال ، ووديان وإبل؛ وخضرة وسحب ، وضباب ، ورعد ، ونار تحرق ، وأشجار تظلل ، وأنهار تروى ، وماء يشفى ويبعث الحياة .علمنا رسول الله كيف يتحرك الداعى فى دعوته مرحلياً ، ويستشهد بالملموس والمجسد ويبتعد عن الاعتباطية

---

(١) الرعد : ١٤ .

والعفوية مهما كانت صلاحية الكلمة . إذا كان المخاطب (بكسر الطاء) رسول ونبي فالمخاطب (بفتح الطاء) ليس بالرسول والنبي وإنما مجرد بشر له حدود فى الرؤية والفكر ، والحوار . كما علمنا أيضاً محمد عليه السلام ، كيف أن سلامة المنطق فى دعوة مهما كانت على حق لا تكفى فى حد ذاتها ، ولا يتكل على مبدأ أنني على حق وكفى وإنما لابد من التحرك ، وبمنهج واعى يضمن صلاحية التطبيق ليؤكد صحة المنطلق وحينما نستوجب التاريخ سنرى كم من دعوات كانت تتمتع بسلامة المنطلق ، وتمثل الحق ، ولكن منهجها فى التبليغ والحوار والإقناع لم يلتزم بمنهج القرآن ، فكانت المآسى الدموية الكبرى قديماً وحديثاً ، إذ من الخطأ الاعتقاد أنه يكفى لدعوة أن تكون على حق لتنجح ، وتنحنى أمامها الرؤوس وتسلم بها الأفئدة . بل لابد لها من منهج صالح فى التطبيق اقتداء برسول الله رائد الكلمة الطيبة ، والحكمة ، والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن . ولعل من روائع السلوك المحمدى فى الدعوة أنه لم يقصرها فى مدرسته الأولى الخالدة على فئة معينة من البشر تحتكرها ، فكان كل مسلم صادق فى إسلامه هو من دعاته لا تفريق ولا احتكار ولا تميز إلا بالعمل الصالح ؛ ولا فضل ولا تكريم إلا بالتقوى . التزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة قبل أن يلزم بها ، وبه اقتدى صحبه ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . ومع النجاح الأول للدعوة ، وانتقالها من السرية فى دار الأرقم إلى الإعلان والجهر كان طبيعياً أن يكون لها انعكاس على خصومها ، وأعدائها وإصداد عند مرضى القلوب من الانتهازيين ، الأكلة فوق كل الموائد ، فعرفت (شأنها فى ذلك شأن كل دعوة اتجهت إلى مخاطبة البشرية) نماذج شتى من المواجهات والصراعات ، مواجهات مضمرة على مستوى الأدعياء ؛ ومواجهات صريحة على مستوى الخصوم ، وصراع وتحدى سافر ومحاربة على مستوى الأعداء ، كلها نمت فى تربة الهجرة وبعدها ، وخلال المواقع الحاسمة من أجل الحق الذى انتصرت رايته بفتح مكة ، واكتمال الدين الحنيف ، وإتمام نعمة الخالق على

خلقه . ثم سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الداعى الأول الراية ، راية الحق والصدق والهداية ، والنجاة ، والصراط المستقيم لصحابته وأتباعه الأوفياء ليحاربوا ، ومن خلفهم جماهير المؤمنين ، الأعداء إن لم يذعنوا للحق ، ويقاتلوهم إن قاتلوهم . كما يجادلوا الخصوم بهدف الإقناع حتى يعودوا إلى الصواب ، وفى نفس الوقت عليهم أن يحترسوا من الدخلاء الأدعياء . نجح صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محاربة الأعداء وقهرهم ، ومجادلة الخصوم وحصارهم ، ولكن طبيعة الالتحام والتداخل بين المواقع وسخونة الصراع والمواجهات وتعـــدد الجبهات وتنوعها ، أعطى فرصة للأدعياء أصحاب الصوت المضمر بخلفياته المقنعة ، من عشاق العمل فى الظلام ، والتغميض والالتباس وأرباب الزخارف ، والألوان من النفوس المريضة ، أن يتحركوا فوق أرض المواجهة ليتجهوا بها من دعوة فى سبيل الحق إلى فتنة ابتدعوها ، وجميع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منها براء ، وسوف نفصل القول فى ذلك بعد أن نحدد على التوالى مفهوم الأدعياء والخصوم والأعداء حتى يعرف لكل فئة معقلها وتتضح معالمها .

***

المبحث الثاني

الأدعياء : الخلفيات منطلقهم ، والتغميض رايتهم ، والضلال نهايتهم

التحديد اللغوى للأدعياء (جمع دعى) وهو الذى تبنيته أى جعلته لك ابناً ، أو المتهم فى نسبة وانتمائه وهذا المعنى الأخير يؤهل للمعنى الحركى للأدعياء على المستوى الاجتماعى انطلاقاً من المعنى الأسرى ، والقرآن الكريم وضع لنا معايير للمفهوم من خلال إطاره وربطها به ، وهو إطار الغموض والالتباس فى الانتماء ، فلقد ورد تعبير أدعياء فى آيتين كريمتين فى القرآن وفى كل آية تعنى واقعة محددة ، ومع هذا فمن روائع القرآن رغم أن المقصود شىء محدد فى الآيتين ، أن قرن مفهوم الأدعياء بإطار عدم الوضوح فى الرؤية والإبهام ، بمعنى لايمكن تصور مفهوم أدعياء إلا فى إطار الالتباس والتغميض . تقول الآية الأولى « **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** »(١) أما الآية الثانية فهى « **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم** »(٢) ... إذا كان المراد فى

---

(١) الاحزاب : ٤ .
(٢) الاحزاب : ٣٧ .

«الآيتين على سبيل التعين توضيح مكان الأدعياء فى النسب ، وم
بنوتهم أو انتمائهم ورفع الاشكال فى الأحكام ، فهم ليسوا بالأ
الأولى ، وإنما ذلك قول بالأفواه ؛وفى الآية الثانية رفع الحرج
بالنسبة لأزواج الأدعياء ، واتخاذ الطريق الصائب، وهو با
كمبدأ نزيه وصريح فى العلاقة أمام الله ، فالذى يعنينا فى
بعده الاجتماعى ، حين تطبيقه على فئة تغميضية ، التباسية البيـ
حيث نجد الآية الأولى بدأت بلفت النظر إلى الالتباس ب
« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » وفى الآية الثانية
مبديه ، وخشية الناس بدلا من خشية الله أيضاً نرى الالتباس
لمن؟.لرسول الله ونبيه وأكرم البشر ، وقدوتنا فى السلوك .
يامحمد وأنت أكرم البشر وأقربهم إلى ، هذه هى الطريق .
بنصح ورفع للالتباس أقدس من هذا النصح نقتدى به ؟ لقـ
قد طرح موضوع الأدعياء فى وقائع معينة ، فاجتهاداً
نوره ، وهديه يمكننا أن ننطلق من القرآن فى تطبيق المفهو
الاجتماعية التى تجسد الأدعياء كفئة بيئتها الالتباس والتغميض
الذين يعيشون تحت ضباب الرؤية ، ويعشعشون فى الظلمات
تحت ستار الإبهام بقلب مزدوج وظاهر يخالف الباطن إ
يتمتعون بسلامة المنطلق ، وذلك بالتزامهم بمبادىء الإسلا
دعوة إلى الله حيث الهدى والنجاة والطريق المستقيم ، فالأد
زيف المنطلق وذلك بالتزامهم بمواقف ذاتية ومآرب شخص
من خلال خلفيات مقنعة لنعرات أو لشعوبيات أو لإسرائيليات
أو لحماسات الجاهلية بمختلف مشاربها . وإذا كان الدعاة يؤ
التطبيق وذلك بتبنيهم لمنهج القرآن فى الدعوة المجسدة فى ا
الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، فالأدعياء يؤكدون سو
بالتجائهم إلى العفوية ، والعشوائية والاعتباطية فى التط
شعارات جوفاء فارغة المحتوى ، وألفاظ منمقة ، تـ
ولاتعنى شيئاً محدداً . وإذا كان الدعاة يفخرون بصحة

وانتصاره فى النهاية بفضل ما يحققه من مقاصد سامية ، ورضاء عن النفس ؛ وعن الآخرين وإسعاد الإنسان بضمان توازنه روحياً ومادياً ، دنيوياً وأخروياً ، فالأدعياء يجنون بطلان الهدف وكذبه وضلاله فلا يجرهم البهتان والإشراك والنفاق والخداع والغش والزيف إلا إلى الضياع روحاً وجسداً . الروح عارية جائعة والنفس مهتزة قلقة ، والجسد أهلكته الدنيا وأمرضته بملذاتها ومتاعها . الأدعياء وقد تحركوا تحت ستار التغميض ، والالتباس ، بل والاستلاب ، (بلغة العصر) زعموا تحقيق كل شيء فى كل شيء ، فكانوا كل شيء فى لا شيء ، هلك من هلك بعد أن أغواه شيطان النفس ، وكفر من كفر حتى بنفسه ، وغالى من غالى فى خصومته المستترة المقنعة للإسلام ليصل بها إلى قمة أعدائه .. ولكن من هم الخصوم ، ومن هم الأعداء الذين يتخذون لهم مخالب من الأدعياء ؟

***

المبحث الثالث

من الخصوم إلى الأعداء

الخصوم جمع خصم لغوياً ، وهو المنازع المجادل : وفى القرآن الكريم والذى به نهتدى فى التحديد للمفهوم فى هذا الغرض ورد التعبير بصيغة « اختصموا وتختصموا ، وتختصمون ، ويختصمون ، وتخاصم ، وخصم ، وخصيم ، وخصام . . . . » وفى جملتها تعنى التنازع والجدل ، والمجادلة ، كما أن الخصام منه ما يكون مبين ، والخصيم قد يكون لدود ، وكأمثلة من الآيات القرآنية التى جاءت فيها هذه الصيغ قوله « **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** » (١) « **قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين** »(٢) « **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب** »(٣)« **ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون** » (٤) « **ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام** » (٥) « **ولا تكن للخائنين خصيما** » (٦) وهذه الآيه الأخيرة تحذرنا من خصومة الخائن ، خصوصاً فى إطار الاحتكام وأن نتمسك بالحق ، وبما أرانا الله فى كتابه . ولقد عرف الإسلام فى عهد النبوة الخصوم الذين نازعوه وجادلوه فمنهم من اقتنع فى النهاية ، وآمن مسلماً ، وحسن إسلامه ، ومنهم من أصر على خصومته ، وعناده ومكابرته ، ليصبح فى ألد الخصام أو يصل إلى مرحلة العداء من الكفار والمجرمين . أو يضمر هذا العداء ويعبر عنه بطرق مخادعة كخناس وسواس ، يدس على الإسلام فى قلوب الناس ،

---

(١) الزمر : ٣١ .
(٢) الشعراء : ٩٦ ـ ٩٧ .
(٣) سورة ص : ٢١ .
(٤) الزخرف : ٥٨ .
(٥) البقرة : ٢٠٤ .
(٦) النساء : ١٠٥ .

بشيطنته الماكرة ، فيشكك فى الدين ويشوه مبادئه لصالحه ، ولمتعته الذاتية ليصير من الأعداء المقنعين من شياطين الإنس . وهكذا نرى أن الأعداء هم فيض من الخصوم ممن دفعتهم خصومتهم اللدودة للإسلام كى يصلوا بها إلى العداء ظاهراً أو مضمراً ، كفاراً ، ومجرمين ، وشياطين للهدم ، للضلال ، للإغواء ، للإغراء . فالأعداء كما حددتهم الآيات القرآنية هم خليط من الكفار والمجرمين والشياطين كقوله تعالى «**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس**» (١) إلى آخر الآية « **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً** » (٢) وبالنسبة للكافرين نذكر « **إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبينا** » (٣) وعن المجرمين من الأعداء قوله : « **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين** » (٤) ولم يكتف القرآن الكريم بتحديد أنواع الأعداء الرئيسية ، وفئاتهم دون أن يشير إلى نوع من الأعداء يحتاج إلى الحذر ، والاحتياط ، لأنه فى عقر الدار فعداوته معقدة ، متداخلة فى الانفعال ، والعواطف ، ومن ثم نصح القرآن المتفهم لمشاعر الإنسان وعمقه بإذابة هذه العداوة ، وتجاوزها لصعوبة تحملها ، وقسوتها حيث قال « **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا ، وتصفحوا ، وتغفروا ، فإن الله غفور رحيم** »(٥) إن هذا التصنيف الدقيق لأنواع الأعداء وفئاتهم حسب درجات عداوتهم ، وكذا للخصوم ومستوياتهم كما حدده لنا القرآن ، والمواقف التى تتخذ حيالهم ، يبرز لنا أصالة الرؤية القرآنية ، وواقعيتها والتزامها بمقاييس موضوعية لتوجيه المسلم فى علاقته ، فيز عدو الله وعدونا بعنف عدائه وشدته ، وأن لا نتخذ منه أولياء مهما كانت الظروف « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء** » (٦) ولقد أكدت حتى الأحداث الأخيرة

---

(١) الأنعام : ١١٢ .
(٢) فاطر : ٦ .
(٣) النساء : ١٠١ .
(٤) الفرقان : ٣١ .
(٥) التغابن : ١٤ .
(٦) الممتحنة : ١ .

فى تاريخ أمتنا العربية الإسلامية صدق هذا المبدأ وكيف تكون النتائج ، حينما نتخذ من أعدائنا أولياء ولا نحترس فى علاقاتنا معهم ، ويتصدر فى هذا النوع العنيف الشديد فى عداوته معنا كمؤمنين « الناس من اليهود » فحينما تؤكد لنا الآية القرآنية « **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود** »(١) تنير لنا الطريق فتميز بين نوعين من اليهود ، نوع آمن بالكتاب والتزم بتعاليمه الحقة وهم « أهل الكتاب من اليهود » ونوع آخر أطلق عليهم « الناس من اليهود » بمعنى من اتخذوا اليهودية كشعار وتسمية لا أكثر ولا أقل وخير مثال لهم فى القرن العشرين « الصهاينة » أدعياء اليهودية ، بعد أدعياء اليهودية فى عصر الرسول عليه السلام فعينهم لنا بعداوتهم الشديدة انذا ، ولو كان القرآن يريد التعميم على كل اليهود من أهل الكتاب فى الماضى والحاضر لقال (لتجدن أشد أهل الكتاب عداوة للذين آمنوا اليهود) وإنما قال « الناس » من غلاة التعصب باسم اليهودية فى عدوانهم للمؤمنين. وهم الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، هم أدعياء اليهودية فى عهد المسيح عليه السلام واليهودية منهم براء ، وهم أدعياء اليهودية فى عهد محمد عليه السلام ، وهم أدعياء اليهودية فى القرن العشرين ، باسم صهيونية عنصرية سفاكة للدماء وباعثة للدمار . ولا علاقة لهم باليهودية الحقة لأهل الكتاب . ومما يذكر للقرآن ودستور ديننا الحنيف كأروع تجسيد للمعانى الإنسانية تصويره للعداء فى حد ذاته على أنه ليس من الصفات الإنسانية المستمرة والمتأصلة فى طابع البشر الذى جبل على الخير . فعلينا أن نتجاوز العداء حينما يستوعب موضوعه بإرادة الله . وهذا التجاوز وصفه جل وعلا بأنه نعمة منه ، فما أجمل العودة إلى التسامح وإذابة العداء ، حالما يستنفد أغراضه بإحلال جو المحبة والود ، والتكامل الإنسانى محله ، قال تعالى « **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم** » (٢) بل نجد القرآن وضح لنا الطريق وبين لنا المنهج فى كيفية الإذابة للعداوة والتغلب عليها والانتقال إلى الولاء والمحبة حين قال : « **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة** ،

---

(١) المائدة : ٨٢ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (١) ولكن العلى القدير أكد لنا أن هذا الطريق ليس بالسهل ، ولا بالهين ، ولا يقدر عليه إلا صابر واسع الصدر حين أضاف سبحانه وتعالى « **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** » (٢) وهكذا تدرج بنا القرآن من الخصوم إلى الأعداء فى التحديد والتصنيف والتوضيح ، فعين الخصوم بأنواعهم المختلفة ، وأن منهم المبين ، واللدود الذى يصل بخصامه إلى درجة العداء ، إن لم يحدث له اقتناع وعدول عن الخصام والعودة إلى الحق بفضل الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن . كما أن الأعداء حدد لنا فئاتهم الرئيسية ، الكفار ، والشياطين من الإنس ، والمجرمين كما أشار إلى نوع من العداء علينا أن نحذره ولا نقع فيه لأنه يمزق القلب والعاطفة ألا وهو عداء الأزواج والأولاد فى عقر الدار ، ونصحنا بإزالته بفضل العفو والصفح والمغفرة . كما أنه صدر فى طليعة الأعداء عدو الله وعدونا ، وهو العداء المبين ، وكذا الغلاة من أدعياء اليهودية بعد أن استبعد انتسابهم لأهل الكتاب من اليهود وإنما مجرد أناس متعصبين سماتهم الذلة ، والمسكنة وبضاعتهم إغضاب الله ، وشدة العداء للمؤمنين . من هذا كله يتبين لنا موقع الخصوم من الأعداء ، وسوف نحاول من خلال نموذج محدد تجسيد هذه المفاهيم كيف انطبقت وطبقت بشكل ملموس على مستوى فئاتها البشرية وكيف كانت المواجهة وطبيعة الصراع بين دعاة الإسلام وبين الأدعياء والخصوم والأعداء بالأمس لنستنير بذلك فى مواجهات اليوم ، وصراعية الحاضر ، وسوف نتبنى كنموذج ما سمى بالفتنة الكبرى فى الإسلام .

***

(١) فصلت : ٣٤ .

(٢) فصلت : ٣٥ .

المبحث الرابع

الدعاة والأدعياء والخصوم والأعداء
بين الأمس واليوم
(المواجهة الكبرى للدعاة ، والفتنة الكبرى للأدعياء)

ليس هناك نموذج أصلح فى الاستشهاد لتجسيد طبيعة المواجهة بين الدعاة من جهة والخصوم والأدعياء والأعداء من جهة أخرى ، بالأمس من الفترة التى تلت وفاة رسول الله ونبيه الأكرم محمد عليه السلام : لقد كان الدعاة أكثر إصراراً على تبليغ رسالة السماء التى حملها رائدهم ، بعد أن حملهم بدوره عليه السلام مسئوليتها المباشرة وتركها شورى بينهم . إن طبيعة المؤمن الصادق فى إسلامه الالتزام . لقد مات عليه السلام وكان على صحابته أن يسيروا بدعوته لإعلاء كلمة الله الحى الذى لا يموت . كل صحابى من الصحابة الأبرار أهل نفسه للمواجهة لا يهاب الاستشهاد ولا يتهيب فى الحق ولا يخشى فى الله لومة لائم ، لا مجاملة ، ولا تهاون ، ولو كان ذلك فيما بين الصحابة أنفسهم . الالتزام كان مبدأ الجميع والإصرار كان منهج الجميع ، ونجاح الدعوة كان هدف الجميع . وهنا نصل إلى طرح تساؤل هام ظل حتى اليوم يتردد مضمراً فى الأفئدة لا يزعزع الإيمان الصادق المستنير بنور الله ، ولكن يوجس فى القلوب المريضة أو الضعيفة ويقلق النفوس المتأرجحة . هذا التساؤل هو كيف يفتن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم المبشر بالجنة ؟ ويتفرقوا ، وقد أكد القرآن أن من يفرق كلمة الدين الرسول منه براء «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء»(١) وكيف

---

(١) الأنعام : ١٥٩ .

مقتل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم بعضاً ، والإسلام عرفنا بمصير القاتل فى جهنم وبئس المصير ؟كيف يبشر بالجنة، ويؤهل بعمله لجهنم فى نفس الوقت ؟ هكذا حاول البعض أن يطرح التساؤل مغرضاً ، أو متجاهلا ، أو جاهلا أو متسرعاً ، كيف صحابة رسول الله عليه السلام وأقرب أعزائه يصلون إلى هذا المستوى :وهم فى هذا العهد القريب من الإسلام، وما زالت روائح الرسول الطاهرة العطرة ، ووجهه المشرق المنير ، وأصداء صوته الخالدتعمر سماء الجزيرة العربية ؛ كيف عثمان ، وعائشة ، وعلى ، ومعاوية ، وبقية أحـــباب رسول الله وصحبه يقاتل بعضهم بعضاً ، ووجهاً لوجه ؟ كل هذا يحدث ونزول الوحى على بعد أعوام ، وقبر الرسول عليه السلام على بعد أمتار ؟ وتستمر التساؤلات فى هذا البعد الواحد ، دون أن تطرح بقية الأبعاد . كمثال منها كيف أن الإسلام وهو ما زال فى مهده لم ينته مع ماعرفوه بالفتنة الكبرى ؟ وقبل أن نسترسل فى العرض نستسمح أن عدلنا عن تسمية « فتنة كبرى » مع تقديرنا الكامل لمن تبنوها كعنوان تاريخى لهذه الفترة من تاريخنا . إن كان ولابد من الاحتفاظ بالتسمية فليضف إليها « الفتنة الكبرى للأدعياء » أما بالنسبة للصحابة جميعاً فهى « المواجهة الكبرى للدعاة » لأننا نبرأ بأصحاب رسول الله الأقربين ، أن يفتنوا بهذه السرعة ، وهذه السهولة حياً فى الدنيا . إنهم لم يفتنوا ، وهذه كلمة حق ، والإصرار على استعمال مفهوم « فتنة » لن يستفيد منه إلا أدعياء الفتنة فى كل العصور فضلا عن كونه لا يفى بالعطاء التاريخى الصحيح لهذه المرحلة اللهم إلا لدى فقراء الفكر ، وضعاف التحليل لعملية التاريخ ، وفلسفته ، ممن يبثون رياح الشك عن قصد أو عن غير قصد فى قلوب المسلمين ، ومن يميل إلى الإسلام ويسعى إليه . ولقد آن الأوان ، إن أردنا للإسلام أن يعرف تاريخه فى إطاره الصحيح لا من خلال تصورات قاصرة ، أو مغرضة أو سطحية ، أن نسمى الأمور بمسمياتها . ومن ثم نؤكد أنها ليست « فتنة كبرى » فى مهب الأحداث ، إلا عند الأدعياء،

وحسب صنعهم وبغيتهم . وإنما هى مواجهة كبرى فى منطاق الحق والإصرار والالتزام بكلمة الله ، وإعلائها ولو بالاستشهاد فى سبيلها ، ولو بالتصدى لأقرب الأقرباء ، وأعز الأعزاء . تمسكاً بقوله تعالى « **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به** »(١) فمن باب أولى إذا كان فعلا وموقفاً لا مجرد قول. صحابة رسول الله لم يفتنوا وما كانوا ألعوبة فى يد الأحداث ولا طلاباً لانية أو ذاتية ، ومتاع حياة . مطامع الدنيا لا تفتنهم عن دعوة الله ، ولا تبعدهم عن طريق الحق . لقد واجهوا ، غيرة على مسئولية وضعت فى أعناقهم بعد وفاة رسول الله عليه السلام ، وكل يعتبر نفسه مسئولا أمام الله ونبيه الأمين . وبالتالى حينما نطالب بإحلال تسمية مواجهة كبرى فى الحق وإحقاقه ، والتسابق فى الالتزام بإعلاء كلمة الله بدلا من فتنة كبرى للصحابة فى مهب الأحداث ، إنما نسعى من وراء ذلك لإظهار الوجه الصحيح لتاريخ هذه الفترة الخالدة ، التى لم يشهدها إلا أبطالها . أما الأجيال التالية بعد ذلك فقد صورت لها من خلال أهواء المؤرخين ، ونزعاتهم ، وانتماءاتهم وتذوقهم بل وخلفياتهم المقنعة ، نضف إلى ذلك أن التاريخ فى حد ذاته رغم نسبيته لم يصل إلينا وافياً ، وذلك لضياع جانب من مصادره ومراجع عبر الأحقاب والعصور. ومن ثم فالتاريخ لهذه الفترة رقع ليكتب نسبياً ، بما يضمن تسلسل أحداثه ، ولم يستوجب علمياً على أضواء تعدد الافتراضات الباحثة أساساً عن صحة التاريخ ، ولم يخضع لفلسفة تاريخية تتبع عليته لتكتشف مسيرة حتمية أحداثه .

نسلم اليوم أن يمكن لاتباع إيديولوجية من صنع البشر أن يتواجهوا ليس فقط على مستوى الأفراد ، وإنما على مستوى الأمم أو أمم عظمى : (الاتحاد السوفييتى والصين) وكل يصر على أن راية الحق رايته ، ملتزماً بولائه ، دون ذكر تعبير فتنة ، فلم نسمع بفتنة كبرى بين الصين ،

---

(١) الأنعام : ١٥٢ .

والاتحاد السوفيتي وإنما مواجهات كبرى إذ كل يؤكد أنه هو الوفي والأكثر ولاءاً لعقيدته .! نسلم بذلك بالنسبة لهم ، وننكره بالنسبة لصحابة رسول الله الأصفياء ، ونقول فتنوا . وشتان ما بين عقيدة دنيوية قد تؤهل للاكتساب والفتنة ، وعقيدة روحية أخروية تسمو بكل مآرب الإنسان ونزعاته . لذا نرى أنه إذا كانت هناك فتنة كبرى مزعومة في الإسلام فهي فتنة الأدعياء خرجت من عقولهم وحملوها التاريخ بعد أن يئسوا من تحقيق أهدافها متكاملتين مع الخصوم والأعداء . أما بالنسبة للدعاة وهم أصحاب رسول الله فقد كانت بينهم مواجهة كبرى في الحق . أدعياء الفتنة أرادوها تلقائياً فتنة كبرى تأكل الأخضر واليابس ، يتسابق تحت رايتها أعداء الإسلام ، بما في ذلك مضمرى الردة والإشراك لتدميره ، وخصومه لتمزيقه . وحافزهم في كل ذلك خلفياتهم المقنعة : نعرات كانت أم عصبيات ، شعوبيات كانت أم إسرائيليات ، متاهات كانت أم حماسات جاهليات ، أما أصحاب رسول الله فواجهوا واستشهد من استشهد منهم إيماناً بالحق وإعلاء لكلمة الله ، ووفاء لرسول الله عليه السلام. كل شيء أمام الدعوة هوان ، لا قرابة ، ولا صداقة ، ولا معزة ، وإنما كلمة الحق هي المعيار ، والوفاء لرسوله هو المقياس . لا حياء في الدين ، ولا مجاملة ولا تردد. هذا الإصرار وهذا الالتزام لصحابة رسول الله ، حاول أن ينفذ منه ، ويتسلل على حسابه الأدعياء والخصوم والأعداء . ويجنون الثمار بفضل الكيد ، والبهتان ، والدس بين صفوف المؤمنين بغية تحويل المواجهة إلى فتنة ، والحق إلى باطل ، وإعلاء كلمة الإنسان بدلا من إعلاء كلمة الله . ولكن قد يطرح تساؤل علينا في ثوب اشكالية هي ، كيف يحدث هذا لصحابة رسول الله ؟ لماذا لم يكتشفوا الكيد والدس ؟ ولماذا أعطوا الفرصة للدخلاء ؟ ونرد على التساؤل : الصحابة ليسوا آلهة ، ولا ملائكة نورانيين ، ولكن بشر ، فإذا كانت بشرية أنبياء جعلتهم في بعض المواقف يكونون موضع عتاب ومعاتبة من رب السماء ويطلبون العفو لا لنيتهم البريئة ، ولكن لبشريتهم ، فمن باب أولى نقبل هذا بالنسبة للصحابة والدعاة ، النية هي الأساس «إنما الأعمال بالنيات» فعمل الصحابة

مرده نية صادقة لمواجهة فى سبيل الحق ، ونبرأ بصحابة رسول الله أن تكون نيتهم لغير الله . والاستشهاد فى حد ذاته الدليل الناصع على صدق النية ، فما تعودنا من إنسان أن يضحى بحياته لغير ما نوى أن يضحى من أجله . طلب الاستشهاد هو طلب لقاء الله ، ولو كان المطلب هو الدنيا ومتاعها لفضلوها ، وأداروا ظهورهم للمواجهات. ومرة أخرى إن كانت هى فتنة ، ففتنة الأدعياء من خلالها يبثون سمومهم وينشرون خداعهم ، ويزاولون نفاقهم وغشهم حباً فى انتهاز متاع الدنيا ،ووصولا إلى زينتها. الخصوم تصوروها نزاعاً يعيدهم إلى حماسات الجاهلية يروى الانفعال ونشوتهم إلى القتال ، والأعداء المضمرون استغلوها فرصة لينالوا من الإسلام بإجرامهم وشيطنتهم ، والمجاهرون منهم استبشروا بها كنهاية لديننا ، وإعلاء لكفرهم المبين ، ولكن ماذا حدث ؟ امتصت المواجهة الكبرى نشوة الخصوم وانفعالهم ، وخيبة أمل الأعداء فخرج الإسلام من المواجهة التى كانت فى سبيل الحق ودعوته أكثر قوة ، وجسده أقوى صلابة . اتسعت أرضه ، وعلت رايته ارتفاعاً فى كل بقاعها ، أما الأدعياء فعادوا إلى جحورهم والفتنة تملأ قلوبهم ، بعد أن ضاع أملهم فى أن يجعلوا منها فتنة دائمة يحققون بفضلها أطماعهم واكتفوا بإلقائها لنا فى موكب التاريخ لتساعد كمثال أرادوه على فتن أخرى كبرى ، وصغرى فى مستقبل القرون . إن كان الأدعياء بخلفياتهم المغلفة فى أقنعتهم ، قد وجدوا أرضية خلال المواجهة للإفراج عن نعراتهم وشعوبيتهم ، وإسرائيلياتهم ، واشراكياتهم ، ورواسبهم وحماسات جاهليتهم يسقطون عقدهم النفسية من خلال ، فانتهز منهم من انتهز ، ووصل منهم من وصل لإرضاء متاعه القاصر فى الدنيا ، وتزييف المواقع . غير أن حتمية المواجهة وكانت فى سبيل الحق رغم من استشهد فيها من الصحابة وهو صادق النية فى مواجهته ، أعطت للإسلام طاقة هائلة لتحصينه وتحقينه ضد الأحداث . وخرج الإسلام من المواجهة ليبتلع الأعداء والخصوم والأدعياء فى فتوحاته الكبرى ، ويشرق صبحه ، وتسطع شمسه ، ويعم نور نهاره مشارق الأرض ومغاربها.

ازدهار الإسلام بعد المواجهة هو أكبر تكذيب لمن قال بالفتنة ، إذ لو كانت فتنة حقاً لقوضته فى مهده ، و إنما كانت مواجهة أصيلة دعمته ، كما يظهر ذلك جلياً عند التحليل العلمى الرزين للتاريخ ، لا الاكتفاء بمجرد سرد الأحـــداث وتتبع تسلسلها ، فالبحث عن صحة التاريخ باستجوابه ، وربطه ببيئته ، ومتناقضاتها ، من خلال تعدد فى الرؤية ؛ والمصادر والمراجع مع اكتشاف عليته على ضوء فلسفته المكيفة لحتمية مسيرته حتى اليوم يؤكد مفهوم المواجهة لا مفهوم الفتنة ، ولن يبقى لنا إلا أن نصحح المفهوم بالنسبة للأجيال القادمة التى سوف تعيش فى عصور الاحتكام العلمى ، وطرح التساؤلات . وتصحيح المفهوم لا يعنى إحلال كلمة بدل أخرى ، وإنما يعنى إعادة صياغة الجوهر بما يتمشى ومنطق مفهوم مواجهة ملتزمين بصحة التاريخ وعليته ، لا بسرده وتسلسله . فنعيد النظر فى تفهمنا للأحداث الكبرى الدامية على ضوء ذلك ليس فقط إبان المواجهة الكبرى (أو ما يسمى بالفتنة الكبرى) وإنما الأحداث التى تلتها كنهاية الأمويين ، والدورات التاريخية للعباسيين عظمة وانحطاطاً ، وكذا العثمانيين ، وكيف أن تيار الأدعياء لم يتوقف ، كما أن ملحمة الدعاة لم تنطفىء ، والتنازع مع الخصوم ومنازلة الأعداء عبر العصور بمساندة الأدعياء وما خلقوه من فجوات وثقوب فى مسيرة المسلمين لم يتوقف . لقد غزى الأدعياء الحركات الاجتماعية الكبرى التى عرفها الإسلام بسمومهم ، وهى حركات كانت منبعثة فى جوهرها من واقع الغيرة على الإسلام ومن منطلق الإصلاح ، تحت راية الاجتهاد والتجديد ، وسطوا عليها لاستغلالها لمآربهم ، وامتطاها فى النهاية الأعداء ليتخذوا منها جسراً ومعبراً للانقضاض على المسلمين فى مراحل تمزقهم وضعفهم . وهكذا نرى فى دوراتنا التاريخية لأمتنا دورتين ، دورة « نقدية تراثية » فيها يلتحم ويتكامل الأدعياء مع الخصوم والأعداء لمنازلة دعاة الإسلام وهم يدافعون عن معاقلهم وهمهم الأكبر الاحتفاظ بهذه المعاقل بالاستماتة فى الالتزام بعقيدتهم داخل مواقع دفاعية تجسد قارية التراث فى عقر داره ، دون

تطلع أو إشعاع . مسلم مرابط فوق أرضه ينتظر ساعته . وفترة (تنظيمية حضارية) يتفكك فيها تلاحم وتكامل الأدعياء والخصوم والأعداء ، الخصم يحاوز بهدف الإقناع أو الاقتناع ، والعدو ينازل من مواقع دفاعية لا هجومية ، وأما الأدعياء فيعودون إلى جحورهم والفتنة تملأ أنفسهم ليبدلوا ثيابهم ، بل وجلودهم ، ويخرجون والزيف شعارهم يتكسبون به ، ويعلنون الولاء الكاذب للإسلام ، بل ويزكون مسيرته فى بعض الأحيان ، وهدفهم الباطل والبطلان ، ومنهجهم النفاق ، والغش ، والهتان ، ويختلطون بالدعاة يحاججون الخصوم بل ويزعمون منازلة الأعداء . . وتتعاقب دورات الزمان ، ونعيش كما عاش أجدادنا ، جو المواجهة ، والفتنة ، والصراع ، مواجهة بين الدعاة ، ومحاولة لعزل الأدعياء ، ومنازعة ومجادلة مع الخصوم ، وصراع مع الأعداء .

***

المبحث الخامس

أدعياء الإسلام أقنعة الأعداء

لاتخوف من الخصوم ولا خوف على الدعاة

واليوم ونحن نعيش فى نهاية دورة « نقدية تراثية » لأمتنا ونشهد إرهاصات دورة « تنظيمية حضارية » لها . يؤهل لها شبابنا بتطلعاته وأرضنا بخيراتها ، وتراثنا بعطائه ، وأصالته ، رغم كل الاشكاليات التى وضعت فى الطريق وفرضت علينا بهدف الإعاقة . اليوم وفى هذا العصر الذى بدأت فيه أزمات الحضارة حضارة غيرنا ، حضارة أوروبا بغربها وشرقها ، ومنشقاتها ، تتكشف وتتعدد. أزمة النقد ، أزمة المواد الأولية ، أزمة القيم ، وبكلمة واحدة أزمة الإنسان أمام حضارة الأشياء ، بعد أن اكتفى بالتطلع إلى الأرض ، ودفن إنسانيته بدفنه للآله ، وعرى جسده من روحه بعد أن أدار الظهر للسماء . يلهث منبتاً خلف غرائزه الحيوانية الاستهلاكية ، ورفاهية مزعومة أفرغته من جوهره ، فأصبح يبيع مثله ، وقيمه ، وجوهره ، وأصالته بأبخس الأسعار ، وفى أحط الأسواق أسواق الخداع ، والغش ، والكذب ، والنفاق فى مقابل سلعة يقتنيها ، وإشباع غرائز استهلاكية نماها ، فاستوحشت ، وتنمرت عليه ، فأصبح عبداً لها ، مستلباً ، يتعايش مع هذا الاستلاب ، ويقول بمشروعيته ، فسلمت به بعد الفرد الأسرة ، لتسلم به الجماعات ، ثم الدول ، والقارات . بعد أن صيغ فى ألفاظ منمقة مغرية تشجع مكر الإنسان ، وخبثه وجوانبه السلبية ، وتضاعف من نفاقه وغشه مثل : ألفاظ التكتيك ، والاستراتيجية ، فن الخداع الفورى ، والخداع طويل الأمد . فيض من المسميات التبريرية لسلوك استهلاكى ضائع ، فعم الزيف فى المجتمع ، والجماعات ،

والأسرة ، لينتهى بزيف الذات ، الكل يلهث لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . فأرض إشباع الغرائز سراب ، ولن يبقى للظهر إلا التراب . ولم يكتف « إنسان حضارة الأشياء »(١) بتلويث مثله ، وقيمه ، وذاته ، وإنما لوث البيئة والفضاء ، تعرى عن معانيه الروحية ، وتنكر للصدق والطيبة والإحسان ، والبر ، تنكر الإنسان للإنسان ، فماتت الضمائر قبل موت الأجساد . فى هذا المعترك الساخن الذى فقد فيه الاحتكام الحق عند الأقوياء والضعفاء على حد سواء . وأصبحت العلاقات ليس فقط بين الأفراد ، وإنما بين الأمم علاقة الذئاب للذئاب ، يأتى الإسلام مجسداً فى دعاته ، معتمدين على سلامة المنطلق بصدق مبادئه وسموها ، وملتزمين بصلاحية التطبيق بفضل الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، وواثقين من صحة الهدف الذى هو إسعاد الإنسان فى الدنيا بتعادله ، وتوازنه بفضل سلوكه الوسطى وبعده عن التطرف والمغالاة والاستلاب ، وفى الآخرة بضمان استقرار وجدانه وحمايته من القلق حين ربط مصيره بما هو أسمى من متاع الدنيا الزائل . نعم يأتى الإسلام بدعاته ، وهم أكثر إصراراً على المواجهة فى سبيل الحق يحاورون الخصوم بالحكمة والإقناع لايرهبونهم ، يجادلون الأعداء بكلمة الحق ، ويكشفون الأدعياء بتعرية زيفهم ، وارتزاقهم لاعن طريق معارك كلامية وطنطنة بالألفاظ ، ولكن بكسب الأرض من تحت أقدامهم فى كل يوم . ليتقدم الإسلام فى كل القارات كمنقذ للإنسان من الضلال ، والاستلاب ، والطغيان بكلمته الطيبة المتجه إلى الضمير والوجدان ، واضعاً فى حسابه إعاقة الأدعياء ومجادلة الخصوم ، ومنازلة الأعداء ، معتمداً على منهج واعى وعلى تعبئة أصيلة للملايين الباحثة عن الحق ، والعدالة ، والتقدمية ، وسمو الإنسان

---

(١) حضارة الأشياء تعبير أطلقناه فى مؤلفات لنا : باللغات الأجنبية لنقيم من خلاله حضارة الاستهلاك والرفاهية المادية • المستهلك (بفتح الهاء) هو الانسان ، والمتحضر هى الأشياء • تتحضر الطائرة ، والثلاجة ، والعربة واللباس والاساس على حساب الانسان المستهلك (بفتح الهاء) قيما وجسدا •

ليس فى قلب المسلم الواعى حقداً ، ولاكراهية ، ولا ضغينة ، ولاطمعاً فى دنيا ، ولا رغبة فى ملذة وقتية واهية ، وإنما قلبه عامر بحب الله ، ومن ثم بحب أخيه متفهم لنفسه ، ولغيره . صافى هادىء فى مواجهته ، صريح فى خصومته ، صلب رزين فى منازلته ، يجامل أدباً ، وحياء ، وتواضعاً ، ولا ينافق ، يحاور صدقاً ولا يراوغ ، ويستوعب المواقف قبل أن يتحرك ، لا مكان لديه للعفوية ، والعشوائية ، والاعتباطية ، وإنما الحكمة والعمق والتروى شعاره فى كل المواقف ليكشف أقنعة الأدعياء ، لايهاب خصومه ، ولايخاف من أعدائه لأن الحياة بالنسبة له ليس مجرد أكل ، وشرب ، ومتاع يحرص مستعبداً على إبقائها عبر أيام تكرر وليالى تمر ، وإنما الحياة بلاء تكشف من خلاله حقيقة طاقته الصالحة ، وجوهره الأصيل ، وسلوكه البين . قاعدته وحكمه فى السلوك إرضاء الله ، وتقبل الدنيا ، وقضاياها تقبل المؤمن المتفائل بلقاء الله ، مسيرته الدنيوية يعيشها بفؤاد رضى ، لاتغريه فينسى حقيقته المؤقتة فيها . ينظر دائماً إلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف وضعت ، وإلى الكواكب المنتشرة فى الكون كيف نظمت وأحكمت ، تسبح باسم الله ، وإلى المحيطات الواسعة كيف حفظت ؛ وسيرت ، فيتواضع فى مشيته ، وفى جلسته ، وفى حديثه ، وعلاقته بكل ما يحيط به ، ويعيد النظر فى هذا الكون ليكتسب مزيداً من التواضع ، ويسلم بأن معرفته مهما عظمت فهى نسبية ، وبقاءه فى الدنيا مهما طال فهو مؤقت ، فيتمسك بما هو باق ، ولايربط قلبه ووجدانه بما هو فانى ، لكى لاينمو تدمه ، وقلقه بتآكل العمر واستهلاكه ، وليكن نعم الداعية المتفاهم مع نفسه أولا ، فيحدد لها أبعاد الدنيا ومعالم الطريق ، لينطلق إلى الآخرين وهو المتجانس المتعادل ، فيكون مجرد النظر إليه مقنع بصدق رسالته التى يدعو إليها ، متفتحاً سمحاً محاوراً لين الجانب ... ورب داعية متعادل صادق من هذا النموذج الأمثل أجدى للإسلام من آلاف الأبواق التى تصيح تحت اسمه وباسمه وأصواتها فى الواقع غير قادرة على إسماع فؤادها نفسه الذى منه تنطلق . الإسلام

ميدؤنا ونشر الإسلامية بنهج العصر غايتنا ، نحاور ونواجه ونقنع الخصوم، وننازل الأعداء ، ونرفع أقنعة الأدعياء، ونشد أزر الدعاة ، الذين صدقوا ما عاهدو الله عليه متمثلين بقوله تعالى « **قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون**»(١).

***

(١) المائدة : ١٠٠ .

obeikandl.com